لك الله يا سوريا

الجزء الأول: الوليمة

هل تخيل ثوار سوريا الأوائل في مطلع عام ٢٠١١ أن ثورتهم ستصبح عربةً يتكالب الناس من كل حدب وصوب على ركوبها حتى ليلقي بعض الركاب الجدد ببعض بُناتها خارجها ويحاولوا دهسهم بها؟ وأن بلادهم ستصبح **وليمة؟**

لست ممن يرتجون الخير من الغرب، ولست ممن لا يزالون يتوسمون الإيجابية المطلقة من القيادات العربية. ولكني مع ذلك مضطرة لأن أقول الحقيقة التي أصبحت ساطعةً بما لا يمكن تجاهله، لو مدّ الجميع يد المساعدة أو الإصلاح في البداية لما ترهّلت عربة الثورة السورية بمن قفز عليها من القساة..

لقد انطلقت العربة بحلمٍ واحد، فإذا بها تكتظ بالأحلام..

تسير فيركبها أول ما يركبها أرباب حلم الإمبراطوية الفارسية ويجدون مكاناً مهماً أمام النافذة، وإلى جانب قائد العربة السورية الكبرى نفسها حيث تتسلل أيديهم إلى المقود بحجة حمايتها. ثم يُهرع إليها المتطرفون من كل نوع، كلٌ يلملم ثيابه وهو يركض إليها لكيلا تفوته الوليمة..

هناك من جاء برایاته لينشئ دولةً إسلامية برؤيتهم ومقاييسهم، في وقت لا يمكن أن تقوم فيه إلا بإزهاق المزيد والمزيد من أرواح المسلمين قبل غيرهم، غير آبهين لما سيحدث في سبيل إنشائها في هذا الوقت لمواطني سوريا الذين أرهقتهم الأحداث وكادت تفنيهم، ولن يهمهم إن استمر سيل الدماء أعواماً بهذه الوسائل العصرية التي تُفني من غير المحاربين من الأطفال والنساء أكثر مما تُفني من المحاربين، لأنها لم تخترع من قبل عالِمٍ يتّقي الله..

وهناك من ركض وهو يثبت عمامته على رأسه نحو العربة ليتحقق حلم الإفراج عن حبيسٍ ينتظرونه منذ ألف وثلاثمائة عام لا يخرج بزعمهم إلا على أشلاء مئاتٍ الآلاف من إخوته المسلمين، رجالهم ونسائهم، شيوخهم ورضعهم.. وكأنهم ينتظرون وحشاً دموياً وليس مصلحاً مهديّا..

ومنهم من كان قد خرج من البلاد وانتظر إلى أن قامت الثورة ودُفع ثمنها من دماء من فيها فاتخذ مقعده منتظراً نهاية القتال ليتولى فيما بعد قيادتهم..

ومنهم من جلس بعيداً في قارته وهو يفرك كفاً بكفٍ في انتظار زمن الصفقات.

ومنهم من اكتفى بالمراقبة من بعيدٍ وهدد وتوعد وهو يتحرك ببطء المشهد المبطّأ في الأفلام ليُمهل من في البلاد حتى يحطموا سلاحهم ويفنوا أنفسهم بأنفسهم لتهنأ دويلة اسمها إسرائيل بعيشٍ هنيئٍ على جثث السوريين.

كلٌ قفز عليها وحاول اقتطاف ما يستطيع اقتطافه منها..

ووسط كل هؤلاء خرج أقسى القساة ليُهينوا الثوار الأوائل فيقولوا إن هذه الثورة صنعتها دولٌ إقليمية بالاتفاق مع أمريكا وإسرائيل..

لك الله يا سوريا..

لك الله أيتها الأرض المباركة التي هدمت مبانيها وشواهد تاريخها العريق وتحولت إلى وليمة..

ولكم الله يا أبرياء سوريا الذين سفكت دماؤهم في الطريق من أجل أحلامٍ لم يحلموها..

ورحمكم الله يا ثوار سوريا الأوائل يا من لو كنتم تعلمون الغيب لربما فضلتم الصبر على ما أصابكم، على أن تسترخص دماؤكم من قبل عالَمٍ غير مبالٍ، أو أن تتحول بلادكم إلى وليمة لكل حالم.

ولله درك أيها الفاروق إذ قلت إنك لتفضّل تحمّل ذنب أن تعفو عن ألف قاتل تعلم أن بينهم بريئاً واحداً لا تعلم أيّهم هو، على تحمل ذنب قتل إنسانٍ واحد لا يستحق القتل، أو كما قلت. هلا أتيت أيها الفاروق لتعلّم كل من يقتلون عشرات الناس وآلافهم من أجل مجرد احتمالٍ بأن يكون بينهم واحد ممن يروْن أنهم يستحقون القتل، أن للروح قيمة وأن للدم حرمة..

وسام خليفة